الدكتور ناهض قديح

# علم إجتماع المعرفة بين إبن خلدون وماركس

## تمهيد:

كلنا يعلم أن الفلسفة كانت فيما مضى تسمى أم العلوم؛ حيث كان على عاتق الفيلسوف أن يتكلم بالإجتماع والفنون والسياسة والإقتصاد والتربية والأخلاق والقانون وغير ذلك... والمعروف أيضاً أن العلوم التي نعرفها اليوم كانت قد إنفصلت عن الفلسفة (الأم) وبدأت مرحلة التخصص، بحيث صار كل علم يتطرق ويهتم بقضايا خاصة ويعالجها، حتى ظهرت العلوم الإنسانية كعلم التاريخ، علم النفس، الجغرافيا، اللغة، الإقتصاد، القانون، السياسة وعلم الإجتماع، ألخ...

## 1- علم الإجتماع:

علينا الإشارة إلى أن انفصال العلم واستقلاليته عن الفلسفة، ليس أمراً اعتباطياً؛ لأن هناك شروطاً يجب توافرها لتتم هذه العملية ويصبح علماً مستقلاً. من هذه الشروط:

- أن يكون له موضوعاً.
- أن يكون له هدفاً وغايات.
- أن يكون له مناهج للبحث.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل توافرت هذه الشروط في علم الإجتماع حتى يكون علماً قائماً بذاته؟

من خلال تعريفه يظهر موضوعه؛ فعلم الإجتماع هو العلم الذي يدرس الظواهر الإجتماعية. وهدفه من ذلك ملاحقة الظاهرة الإجتماعية في الماضي والحاضر للكشف عن العوامل والدوافع التي تتحكم بها. ثم أن لهذا العلم مناهج وطرقاً للبحث نذكر منها: المنهج التاريخي، الوصفي، التجريبي، المقارن...

إذن، نستطيع القول أن شروط إنفصال العلم واستقلاليته قد توافرت في علم الإجتماع. والجدير ذكره هنا أن هذه الإستقلالية لا تعني أبداً أنه أصبح علماً منعزلاً، إنما هو على علاقة مستمرة وجدلية بغيره من العلوم، يقدم لها الخدمات، ويستفيد هو من نتائج أبحاثها.

## 2- علم إجتماع المعرفة:

لقد تربع علم الإجتماع على رأس العلوم الإنسانية. ومن الطبيعي أن يتطور هذا العلم ويتشعّب ويتفرّع، إنطلاقاً من مبدأ التخصص، حتى رأينا فروعاً عديدة له كعلم الإجتماع العائلي، الريفي، السياسي، التربوي، التنمية، العمل، الجريمة، القانون، ألخ...

أما علم إجتماع المعرفة، الذي هو أشمل هذه العلوم التي ذكرناها، ولن نغوص بالتعريفات الكثيرة التي عرفته لنقول: إنه العلم الذي يتعقب المعارف الإنسانية كلها، ويحاول ربطها بالبنية الإجتماعية والواقع الإجتماعي، ويشكل جسراً يربط بين علم الإجتماع بالفكر الفلسفي؛ أي أن هذا العلم الجديد يحاول كشف إرتباط المعرفة ككيان ذهني بالمسار الإجتماعي العام، وبالإطار الإجتماعي الذي تنشأ وتتحرك فيه هذه المعرفة.

## 3- المساهمات التي بلورت هذا العلم:

نشير هنا إلى مسألة هامة، وهي أنه إذا كان "كومت" Auguste Comte (1798م – 1857م) هو أول من وضع عبارة علم الإجتماع، فهذا لا يعني أن هذا العلم ولد مع

"كومت" عام 1839م. لأن طرح المسألة الإجتماعية والتفكير في الواقع قديماً جداً يعود إلى "أفلاطون" في جمهوريته المثالية، و"الفارابي" في أهل المدينة الفاضلة، و"مونتسكيو" في روح الشرائع، و"إبن خلدون"، وغيرهم كثير. ونقول نفس الشيء عن علم إجتماع المعرفة؛ حيث أن له جذوراً عميقة في التاريخ، وإن كانت تسميته تعود للقرن العشرين فقط. والمقصود من هذه التسمية كشف العلاقة بين المعرفة والعلم من جهة، والواقع الإجتماعي من جهة أخرى. ومن المؤكد أننا عندما نربط المعرفة بالمجتمع تصبح معرفة ديناميكية ملازمة لحركة المجتمع الداخلية؛ لأن المجتمع هو بحالة حركة دائمة مستمرة، إذ لا نعرف مجتمعاً جامداً ثابتاً لا حركة فيه.

4- صاعد الأندلسي (1029م – 1071م):

قد يكون صاعد الأندلسي أول من أسس لعلم إجتماع المعرفة حين تطرق إلى مسألة الحضارات محاولاً تفسير بروزها بالعودة إلى العنصر الإقليمي. فهو لم يقل بكيفية تشكل العلوم وتلازمها مع الحياة، إلا أنه لاحظ نموها عند بعض الشعوب وإختفائها عند البعض الآخر، وأعاد ذلك إلى السبب الموضوعي الأول، وهو تأثير العنصر الجغرافي. وكما نعلم، فقد أصبح حالياً التأثير البيئي والجغرافي من المسلمات الأساسية، في ميدان علم إجتماع المعرفة والعلوم الإجتماعية بشكل عام.

5- إبن خلدون (1332م – 1406م):

إذا ما عرفنا أن لكل مرحلة زمنية فكرها وذهنيتها ومفاهيمها وتقاليدها وعاداتها ونظرتها للفن والجمال والحياة، أدركنا مدى الترابط بين البنية الذهنية الفكرية وما تنتجه وبين الظروف الإجتماعية، ووعينا العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع، أو بين البنية الفوقية والبنية التحتية حسب التعبير الماركسي.

حين أكد لنا إبن خلدون أن العلوم ظاهرة إجتماعية طبيعية تتعلق مباشرة بطبيعة العمران الذي تنشأ فيه، يكون قد ربط المعرفة بالشكل الإجتماعي ربطاً جدلياً، وهذا يعني أن الشكل الإجتماعي يؤثر في المعرفة، ومن ثم تعود المعرفة لتؤثر فيه، فتجعله أكثر قدرة على معارف جديدة.

لقد أعطى إبن خلدون الأمثلة على ذلك حال بغداد وقرطبة والبصرة والكوفة لمّا كثر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في إصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون. ولمّا تناقص عمرانها تراجعت وفُقد العلم والتعليم وانتقل إلى غيرها. فبحر العمران إذا زخر ظهرت العلوم والفنون، وإذا تناقص تناقصت.

لقد أكد إبن خلدون على العلاقة الموضوعية بين العلم والتقدم الإجتماعي، فحيث يكون هناك تقدم حضاري يكون تقدم علمي، وحيث تتراجع الحضارة تتراجع العلوم بالضرورة. إذن، فالعلم والمعرفة يعيشان في علاقة موضوعية مع المجتمع، وينموان مع المدنية ويتقهقران مع نقيضها.

هذا يسمح لنا القول بأن الأفكار والمعارف هي نتاج الواقع وصورة له. فإذا كان هذا الواقع متقدماً إغتنى الفكر وتحرك في إطاره بطلاقة وحرية؛ ينتج، يصنع، يؤثر فيه ويغيره. وإذا كان متأخراً إنزوى الفكر وتقوقع وراح الإنسان يلهث وراء تدبير معاشه وتحصيل قوته. وبكلمة واحدة نقول: إن كلاً من الواقع والفكر يؤدي دور الفاعل والمنفعل، المؤثر والمتأثر. والمعادلة الجدلية التي يطرحها إبن خلدون، ويسبق بها أي فكر أو فيلسوف إجتماعي تصبح كالتالي: فكر ⟷ واقع

والجدير ذكره هنا أن إبن خلدون قد قلب بهذه المعادلة ما كان سائداً قبله، وأحدث تطوراً جدياً. فبعد أن كان الفكر المثالي قد جعل المعرفة شيئاً قادماً من عالم الأفكار

(راجع نظرية المثل عند أفلاطون)، جعلها إبن خلدون قادمة من عالم الواقع، العالم المحسوس المادي، واعتبر ركائز المعرفة هي الشكل الإجتماعي.

لقد اتضح رأي إبن خلدون هذا أكثر عندما قال بأن العنصر الإقتصادي له الدور الفاعل في تطور المجتمعات، وبالتالي تطور المعارف والعلوم. وفي هذا السياق يقول إبن خلدون: "إعلم أن إختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والإبتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها وإستخراج فضلاتها..."

يتضح لنا عندما نقرأ هذا النص أن الإختلاف في وسائل الإنتاج يؤدي إلى إختلاف في علاقات الإنتاج، وبالتالي إلى إختلاف في كل الأحوال والعادات والتقاليد وأشكال المعرفة. فعادات وتقاليد ومعارف البدو مثلاً الذين يعيشون على الرعي تختلف عن عادات وتقاليد ومعارف الذين يعيشون على الزراعة، أو أولئك الذين يعيشون على التجارة.

لقد حرص إبن خلدون أن يبرز الإرتباط الوثيق بين المعرفة والمجتمع، بين تطور العلوم وتطور المجتمع ككل. فالمعرفة بالنهاية تستقى أصولها من عناصر الواقع الإجتماعي الجغرافية والسياسية والإقتصادية والنفسية والإيديولوية، حيث يؤدي كل عنصر دور الفاعل والمتفعل، كما رأينا. وتتنوع المعرفة حسب التشكيلة الإجتماعية التي تمثل "الوعاء الذي منه يستقي الفكر معارفه". فالتقدم الحضاري يولد أرضية ثقافية ملائمة لإستيعاب مزيد من المعارف والعلوم، لأنه يؤثر في إستعدادات أفراد المجتمع لتقبل المزيد من المعارف. وعندما يربط إبن خلدون العلوم بالصنائع دائماً فلأنه لا يفصل الفكر عن المهن. فالأفكار عنده تتكون من جراء إحتكاكها بالواقع الإجتماعي، أي بالواقع المادي المحسوس، أي المجتمع وما يحدث فيه من عمليات وتفاعلات.

## 6- كارل ماركس (1818م – 1883م):

إتضحت معالم علم إجتماع المعرفة مع ماركس حين إعتبر أن المجتمع مؤلف من البنية الفوقية وهي عبارة عن الأفكار التي يحملها المجتمع، وتتضمن السياسة والقانون والفنون والأخلاق والتربية والعادات والتقاليد ألخ... والبنية الثانية هي التحتية أي ما يحصل في الواقع المادي، أي البنية الإجتماعية والإقتصادية والسياسية. والبنية الفوقية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبنية التحتية التي هي الأساس المادي للمجتمع، الذي يحدد البنية الإجتماعية وتطورها وتغيراتها الإجتماعية.

إننا نرى من الضروري الإشارة لبعض المصطلحات الماركسية وتعريفها وشرحها حتى يتسنى لنا فهم ماركس لهذا العلم.

أ- وسائل الإنتاج: هي كل ما يستخدم في الإنتاج: كرأس المال – الآلات – الأدوات – المصانع. ففي المجتمع الفلاحي الزراعي مثلاً، تعتبر التربة والمجرفة والرفش من وسائل الإنتاج، كذلك المناجم والمصانع في المجتمع الصناعي، وفي المجتمع المعرفي تعتبر المكاتب والحواسيب أيضاً من وسائل الإنتاج.

ب- علاقات الإنتاج: هي كل العلاقات التي يجب على الناس أن تدخلها لإنتاج وإعادة إنتاج وسائل العيش والإستمرار بالحياة. وعندما نقول أن على الناس الدخول في هذه العلاقات الإجتماعية، فهذا يعني أن هذه المشاركة فيها ليست طوعية أو إختيارية، ومجمل هذه العلاقات هي بنية مستقرة نسبياً (البنية الإقتصادية).

ج-قوى الإنتاج: وهي عبارة عن الموارد الطبيعية، القوى العاملة، رأس المال، التقنيات. إذن هي كل القوى التي يطبقها الأفراد في عملية إنتاجهم: الجسم، الدماغ، الأدوات، التقنيات، المواد، المصانع، وسائل الإتصال والنقل، المعدات، التعاون بين العمال، وظائف الإدارة والهندسة، والمعرفة الإنسانية قد تكون من قوى الإنتاج. وهكذا نرى أن جميع العوامل التي تسهم في نشاط البشر الإنتاجي هي من قوى الإنتاج. ويشير ماركس إلى أن القوى المنتجة ليست أكثر من قوة العمل الحقيقية للعمال مع بعض وسائل

الإنتاج. وهكذا نرى أن القوى المنتجة هي مزيج من وسائل الإنتاج (الأدوات والآلات والأراضي والبنية التحتية وغيرها) مع القوى العاملة البشرية.

## 7- ماركس وعلم إجتماع المعرفة

عندما نقول أن علم إجتماع المعرفة هو العلم الذي يدرس علاقة الفكر الإنساني بالمجتمع وحركته المستمرة، وإعتبار هذه العلاقة جدلية بحيث تتأثر وتؤثر، نجد أن "ماركس" و"أنجلز" إنطلقا من أن إنتاج الأفكار والتصورات والوعي يرتبط بالنشاط المادي والتعامل المادي بين البشر. فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم من خلال عيشهم وعملهم وتفاعلهم مع بعضهم البعض، فهم يروحون ويجيئون ويبنون علاقات فيما بينهم، إذ لا حياة خارج إطار بنية الإنتاج، ولا وجود للإنسان بمعزل عن الشروط المادية للحياة والإنتاج. وهذا ينعكس على معارف البشر، إذ لا معرفة في المطلق أو خارج شروط تكونها المادية. فشروط الوجود سواء على صعيد حياة البشر أو حياة المعارف، هي الأساس الأول الذي تنطلق منه العلاقات الإجتماعية والعلاقات الفكرية الثقافية. وإن ما يحدد طبيعة البشر شروط الوجود هذه وحدودها هو واقع علاقات الإنتاج الإقتصادية الخاصة بالتشكيلة الإجتماعية الإقتصادية المعيشية، وهذا يعني أن "المعرفة تواكب النشاط الفعلي الذي يحدث في الواقع وتتناغم معه، وهي جدلية، إنها حركة الفكر من الجهل إلى المعرفة، ومن المعرفة غير الكاملة إلى معرفة أكثر كمالاً".

إن علم إجتماع المعرفة عند ماركس هو ذاته علم إجتماع الإيديولوجيا، فهو ربط المسائل المعرفية بمسائل الوعي الطبقي والإيديولوجيات الطبقية. ولفظ إيديولوجيا تعني مجموعة المعتقدات الخاصة بمجتمع أو طبقة إجتماعية، وتفصح عن نفسها عامة بمذهب سياسي أو إجتماعي، يوحي بأفعال سلطة أو حزب أو طبقة إجتماعية. فالإشتراكية مثلاً إيديولوجيا والليبرالية الإقتصادية إيديولوجيا أيضاً.

لقد سمى ماركس إيديولوجيا الظاهرة الفكرية المرتبطة بالمصلحة الإجتماعية. فالبنية الفوقية الإيديولوجية لبنية إجتماعية ما، لا تُفهم – برأي ماركس – إلاّ بتحليل البنية التحتية الإجتماعية والإقتصادية والسياسية. فالبنية التحتية هي التي تحدد حقل الفكرة المقبولة إجتماعياً.

ويعتبر ماركس المعرفة بأنها محتوى الفكر والوعي، أي كل أنواع الإنتاج العقلي، سواء كان المقصود أسطورة أو عقيدة دينية أو مذهباً سياسياً أو منهجاً فلسفياً أو نظرية علمية أو غير ذلك.

والإنسان لا يتلقى المعرفة أو ينتجها، وبالتالي لا يفهم العالم الخارجي، إلاّ من حيث كونه عضواً في طبقة إجتماعية أو طائفة أو حزب أو تجمع ديني أو غيره. والجدير ذكره أن أنواع السلوك والتصرفات والأفعال الإنسانية لا تنفصل عن أنواع المعتقدات والإيديولوجيات.

وهكذا فقد ربط ماركس البنية الذهنية الفكرية (البنية الفوقية) بالبنية الإقتصادية ربطاً جدلياً عندما جعلها متزامنة في أشكالها وأنواعها مع علاقات الإنتاج المتغيرة. والبنية الفوقية عنده تحددها البنية التحتية الإقتصادية.

وبهذا تكون نقطة الإنطلاق عند ماركس مادية، وهذا يتنافى مع ما ورد في الفلسفة اليونانية الإغريقية حول هذا الموضوع، وما تم تبنّيه من قبل الفلاسفة المثاليين الذين ظهروا في أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر.

## خاتمة:

من خلال هذا العرض نستطيع القول أن علم إجتماع المعرفة يتمحور حول علاقة الفكر بالواقع مع كل ما يحتويه هذا الواقع من مادة وحركة وأنظمة سياسية وإقتصادية ومؤسسات

إجتماعية؛ أي علاقة البنية المعرفية بالبنية الإجتماعية التي تعززها، أي إرتباط المعرفة بالعالم المادي الموضوعي.

والحقيقة نحن في عالمنا العربي بحاجة ماسة لعلم إجتماع المعرفة لأنه يساعدنا على الفهم العميق لبنيتنا الإجتماعية وبنيتنا المعرفية، وبذلك نتعرف على واقعنا الإجتماعي والذهني، والكشف عن العوائق التي تعترض تقدمنا وتطورنا، فنتمكن حينها التخطيط وتذليلها والنهوض بالواقع الذي نعيشه.

علينا إذن أن نتوجه بعقلنا لمجتمعاتنا العربية وندرك واقعها ونكشف عن المشاكل والصعوبات التي تتحكم ببنيتنا الإجتماعية والمعرفية، وأن نتوجه لتراثنا لنؤكد على جانبه المضيء الإيجابي ونرفض الجانب السلبي الذي يجمدنا ويقف حائلاً دون تطورنا. كما ندقق جيداً فيما نأخذه عن الغرب، بحيث نتقبل ما يوافقنا ويتناسب مع مجتمعاتنا وحاجاتنا وفائدتنا، وإلاّ سنبقى في تخلفنا عن الركب الحضاري العالمي.